

المحور الثاني

عصر عمر راسم : (1884-1959م)

المشروع الاستعماري والفكر
الإصلاحي

أهمية الإصلاح وعوامله في الجزائر

د. توفيق مزارى عبد الصمد
المدرسة العليا للأداب والعلوم
الإنسانية
بوزريعة-الجزائر

يقصد بالإصلاح تلك النهضة الثقافية التي عرفتها الجزائر في مطلع القرن العشرين، والتي لا يمكن فهمها إلا من خلال دراسة التطورات الثقافية التي مرت بها قبل الاحتلال الفرنسي.

كانت المدارس والمعاهد والزوايا المنتشرة في مختلف نواحي الجزائر، دليل على أن الحياة الفكرية والثقافية كانت مزدهرة بها، فقد ذكر الرحالة الألماني (فيلهلم شيمبرا) حين زار الجزائر في شهر ديسمبر 1831م : (لقد بحثُ قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أنني لم أعثر عليه، في حين أنني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب).

لكن الاستعمار الفرنسي بعد احتلاله الجزائر عمد إلى تحطيم البنية الفكرية الدينية واللغوية للشعب الجزائري بمختلف الوسائل، بمصادرة الأوقاف الإسلامية، والتضييق على التعليم العربي حتى إذا حلت سنة 1901م - أي بعد حوالي 70 سنة من الاحتلال - أصبحت نسبة المتعلمين من الأهالي لا تتعدى 3.8%.

ونتج عن ذلك انتشار الجهل والأمية، وزاد في ذلك الثورات المتتالية التي خاضها الشعب ضد الاحتلال الفرنسي الغاشم، والتي أدت إلى فقدان الأمة لزهرة علمائها في ميدان الجهاد.

ومن جهة ثانية هاجر الكثير من المستيرين من حملة الثقافة العربية الإسلامية إلى المشرق العربي، وإلى البلاد الإسلامية الأخرى، وبقوا يتحيتون الفرص للرجوع إلى الوطن وتطهيره من سيطرة الفرنسيين، كل ذلك ساهم في انتشار الجهل وتفشي الأمية بين أفراد الأمة، مما أثر سلباً على الحياة الفكرية في تلك الفترة.

وكان الاستعمار يدرك بأن التعليم ليس أداة تجديد خلقي فحسب، بل هو أداة سلطة وسلطان ووسيلة نفوذ وسيطرة، فأنشأ لهذا الغرض عدة مدارس ابتدائية بديلة منها (المدارس الفرنسية الإسلامية (Franco Musulmane)، في الجزائر العاصمة وفي بعض المدن الأخرى ابتداءً من سنة 1836م، والتي ليست في حقيقة الأمر من أجل تعليم أبناء الجزائر، ورفع مستواهم الثقافي، وإنما بقصد تجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية الإسلامية، ومحاولة إدماجه وصهره في البوتقة الفرنسية بإعطائه تعليمًا هزيلًا يجعله أسهل انقيادًا لسياسته، وأكثر خضوعًا للاحتلال، ولإيجاد قلة متعلمة بلغة الأجنبي للاستفادة منها في بعض الوظائف التي تخدم الاحتلال.

عاشت الجزائر منذ سنة 1830م جموداً فكرياً تقلصت فيه الثقافة العربية الإسلامية وخيم الجهل والبؤس على الجزائريين

وسيطرت أفكار الزوايا المنحرفة على العقول، وانقطعت الاتصالات بين الجزائر والعالم الإسلامي وهذا ما أثر على روابطهم الحضارية وصاروا كما يقول أحد الجزائريين (إسماعيل حامت) : "كان للإلحاد الغربي مبلغ كبير من التأثير في جمهور ليس بالقليل من مسلمي الجزائر وإن كانوا برحوا مسلمين في الظاهر فهم يجهلون حد ما وصلت إليه روحهم من التلاشي"¹.

ولكن رغم الحصار الذي فرضته فرنسا على الجزائر لعزلها عن بقية الأقطار الإسلامية، وامتدادها الحضاري، فإنه مع إطلالة القرن العشرين بدأت الجزائر تعيش حركة فكرية شبه متواصلة مع الأقطار الإسلامية، سواء عن طريق الطلبة الذين أرسلوا للدراسة في جامع الزيتونة والأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى، والذين حاولوا إحياء الشعلة التي أخمدها الاستعمار في نفوس الأمة، أو عن طريق الدعوات الإصلاحية التي قامت في البلاد الإسلامية، مثل دعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. إضافة إلى البوادر الإصلاحية الفردية التي قام بها في الجزائر بعض العلماء المتفاعلين مع حركة الإصلاح الإسلامي، أمثال عبد القادر المجاوي (1848 - 1913م) وعبد الحليم بن سماية (1866 - 1933م).

وكانت إصلاحات الحاكم جوناو العام في الجزائر من العوامل التي ساعدت على تهيئة المناخ لنشأة هذه النهضة الإصلاحية، على الرغم من أنه فرنسي نصراني، إلا أن وصوله إلى منصب

الحاكم العام في الجزائر، كان له أثر كبير على الحياة الفكرية في تلك الفترة. فيذكر أنه (شجّع إحياء فن العمارة الإسلامية، وبعث التراث المكتوب، والتقرّب من طبقة المثقفين التقليديين، وتشجيعهم على القيام بمهمتهم القديمة، كإقامة الدروس في المساجد ونحوها)، كما اهتم بالتأليف ونشر الكتب العلمية وكتب التراث، مما كان له أثر هام على الحياة الثقافية في الجزائر.

وقد أشرف (جونار) على فتح المدرسة الثعالبية سنة 1904م، بجوار مقام (سيدي عبد الرحمن الثعالبي) في حي القصبة بالعاصمة الجزائرية، وندب اثنين من الشيوخ للتدريس ونشر العلم بها، كما أمر بنشر كتابين هامين، أحدهما كتاب : (تعريف الخلف برجال السلف) الذي صنّفه الشيخ أبو القاسم الحفناوي وطبعه سنة 1907م، والكتاب الثاني : (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) لابن مريم الشريف التلمساني، الذي تولى إعداده للنشر الأستاذ (محمد ابن أبي شنب)، المدرّس بالمدرسة الثعالبية الدولية، وطبع سنة 1908م برعايته شخصيا.²

ومن خلال هذا يتبين لنا أن الحركة الإصلاحية التي عرفت الجزائر في مطلع القرن العشرين والتي أطلق عليها مصطلح "النهضة" إنما كانت تحاول إعادة بناء الشخصية الجزائرية بأبعادها الحضارية العربية والإسلامية مستعملة مختلف الوسائل المتاحة، كالصحافة والنوادي والجمعيات وغيرها من النشاطات الثقافية،

وبما أن عائلة عمر راسم عاصرت هذه الحقبة وتركت آثارا فنية وثقافية، فمن الجدير بنا دراستها لمعرفة مدى إسهاماتها في هذه النهضة الإصلاحية.

دور العائلة

كانت عائلة عمر راسم محافظة³، ويبدو ذلك من خلال حرصها على تنشئة أبنائها تنشئة دينية، فقد أدخله والده " علي بن سعيد بن محمد" منذ وقت مبكر الكُتّاب لحفظ القرآن، حتى إذا بلغ سن الثانية عشر أصبح حُرّابا في جامع السفير. ووظيفة الحُرّاب من الوظائف الدينية التي تجعل صاحبها ملتزما بالمسجد، فيجيد حفظ القرآن وما يتعلق بذلك من تعلم اللغة العربية، حيث تعلم عمر راسم النحو على يد الشيخ "محمد بن مصطفى بن خوجة"، ولعل إصرار الأسرة على توجيهه نحو الأبعاد الحضارية الإسلامية جعله يدخل مدرسة الجزائر الشرعية الفرنسية التي أصبحت فيما بعد تدعى الثعالبية⁴، حيث تعلم لمدة سنة كاملة مبادئ العلوم العربية والإسلامية⁵. وهذا يبين دور هذه العائلة في توجيه أبنائها هذا المنحى في وقت كانت الجزائر تعيش مخاض النهضة الإصلاحية.

عمر راسم والإصلاح

ظهر دور عمر راسم الإصلاحي من خلال نشاطه في الصحافة الوطنية التي يعتبر من روادها، وتميز بأفكاره الإصلاحية الثورية منذ صباه⁶ بما كان ينشره من مقالات نارية حادة⁷. في وقت

كان الإصلاح عن طريق الصحافة من الصعوبة بمكان، ذلك لأن الجزائريين في تلك الفترة كانوا غير قادرين من الناحية المادية والفنية على إنشاء الجرائد والمجلات فضلا عن مضايقة الإدارة الاستعمارية التي تحاول احتواء كل نشاط صحفي وتوجيهه بما يخدم بقاءها في الجزائر، وقد فشل عمر راسم بسبب ذلك على إصدار أول جريدة له باسم الإصلاح لكي يستعين بها على نشر أفكاره.

ورغم فشله إلا أنه لم يتوقف عن محاولة إنشاء صحافة وطنية لأنها في نظره أسرع إلى توصيل أفكاره الإصلاحية المبنية على مقاومة النزعة الاستعمارية والمطالبة بحقوق المسلمين الجزائريين، حتى أنه كان يمضي رسائله بعبارة "البائس اليائس الثائر على العصر وأهله"⁸ كما حارب في نفس الوقت النزعات الانتفاعية التي تفرق بين الجزائريين⁹. وبذلك يعتبر من الرعيل الأول في الإصلاح والكفاح¹⁰.

وفي الأخير تمكن عمر راسم من إصدار جريدة الجزائر سنة 1908م؛ والتي تعد أول مجلة عربية يصدرها جزائري وكان يحررها ويدعمها بالرسومات الساخرة التي كان يرسمها بنفسه، سعى من خلالها إلى توعية الجزائريين وتثقيفهم وتعليمهم واطلاعهم على ما يجري في الخارج¹¹. واعتبرها الشيخ أحمد توفيق المدني من أولى الجرائد الشعبية أو الحرة لكنها لم تدم طويلا لعجز صاحبها عن تغطية التكاليف.

وفي سنة 1913م أصدر عمر راسم باسم مستعار (أبو منصور الصنهاجي) جريدة ذو الفقار وهذا دلالة على خطها المعارض لسياسة الإدارة الاستعمارية وحذر صاحبها بسبب توجهاتها التغييرية الإصلاحية. فقد اتخذ منها وسيلة لإصلاح الأوضاع الاجتماعية المتدهورة في الجزائر، ونشر الأفكار الإصلاحية على الطريقة العبودية. وقد قام بتحديد الأهداف الإصلاحية فجاء في مقدمتها : "لما سمعنا الإسلام يئن من طعنات أعدائه والوطن ينادي بالويل والحسرة على أبنائه، أنشأنا هذه الجريدة لمحاربة أعداء الدين وكشف أسرار المنافقين، وإظهار مكائد اليهود والمشركين للناس أجمعين، وانتقاد أعمال المفسدين"¹². ولكن لم يصدر منها سوى ثلاثة أعداد (بين أوت 1913 وجوان 1914م)¹³. حيث أوقفها الاستعمار متذرعاً بقيام الحرب العالمية.

وقد أثمرت تنشئة أسرة عمر راسم المحافظة في بلورة أفكاره الوطنية والإصلاحية في وقت مبكر، ولاسيما أنه عاصر بداية انتشار مدرسة التجديد الإسلامي وحركة الجامعة الإسلامية، فقد كان عمر في مقتبل العمر عندما زار رجل الإصلاح "الشيخ محمد عبده" الجزائر سنة 1903م وكان من أوائل المتأثرين بنظرته في نهضة العالم الإسلامي. ولا أدل على ذلك أنه اعتنق وتحمس لمبادئ الشيخ محمد عبده وهو لا يزال طالبا في مقتبل العمر يزاوِل دراسته بالمدرسة الثعالبية، فقد انتصر لآراء عبده وتحمس لها مما أثار سخط بعض مشايخ المدرسة الجامدين عليه فطردوه منها¹⁴.

ورغم أن تراث عمر راسم المخطوط لا يزال لم يدرس بشكل جيد، ولعل بعضه ضاع، إلا أن ما نشره من مقالات في الصحف التونسية والجزائرية، وما ألقاه من خطب بالعربية والفرنسية قد بلور إلى حد كبير مواقفه وأفكاره الإصلاحية، وبين أنه كان يقذ الذهن مطالعا على أحوال الجزائر والعالم الإسلامي عن وعي ودراية.

فعلى الصعيد الوطني نجد عمر راسم يشخص وضع الجزائر على أنها "في أسوأ حال" واعتبر ما حدث في الجزائر إنما هو الفساد الأخلاقي والاجتماعي، وانتقد الخطباء السياسيين والجرائد التي تكذب بالحديث عن سعادة الجزائريين، معتبرا ذلك تزويرا للحقائق، لأنه اعتبر أن الجزائري تحت الاستعمار الفرنسي هو آخر الأدميين درجة، فقرا وجهلا¹⁵.

ونفس الملاحظات أبداه عن وضع العالم الإسلامي، حيث أدرك بثاقب نظره أن ما يحدث فيه من تغيير لا يخدم مستقبله، وأن هذا القرن بالنسبة للعام الإسلامي هو قرن الظلمات. فهذه النظرة السوداوية لأوضاع الجزائر والعالم الإسلامي كانت واعية بأن الاستعمار الغربي الحديث هو أكبر عائق أمام نهضة العالم الإسلامي وتطوره.

وبعبارة أكثر وضوحا فإن عمر راسم كان ساخطا على الوضع داعيا إلى الثورة والتغيير، فنجده يساهم بعدة مقالات في

جريدة التقدم التونسية عامي 1907، و1908م يعمل فيها على انتقاد السياسة الفرنسية والفئة الاندماجية لأنهم "وَلَّوْا وجوههم شطر المتسلط علينا، واتبعوا سياسية الفرنسيين المتغلبين على الوطن"¹⁶. واعتبر هذه الفئة الاندماجية خطرا على المسلمين الجزائريين لأنها تريد أخذ الحقوق السياسية عن طريق التفرنج والاندماج فيذكرهم بقوله : "أولئك الذين تخلقوا بمفاسد التمدن الحديث، وشروور الحضارة الجديدة"¹⁷، إنما يريد بذلك جماعة النخبة الذين كان بينهم وبين رجال الإصلاح الإسلامي صراع حاد، فبينما كانت النخبة معجبة بالمدنية الغربية ومتأثرة بنمط الحياة الغربية، كانت الحركة الإصلاحية تريد إعادة الجزائر لأصولها العربية الإسلامية¹⁸.

ولما أنشأ صحيفة الجزائر باسمه عام 1908م حاول ربطها بهويتها العربية الإسلامية، فأصدرها بالعربية ووصفتها مجلة العالم الإسلامي بأنها جريدة دينية بالدرجة الأولى، وأنها تهتم بأخبار المسلمين الجزائريين أو الذين يزورون الجزائر منهم¹⁹، ومعنى ذلك أنها تهدف إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية في أوساط الجزائريين وإيجاد نخبة جزائرية متشعبة بذلك، وهو نفس الهدف الذي تبنته جمعية العلماء الجزائريين فيما بعد.

وقد بنى عمر راسم إصلاحه على مفهوم ديني عصري متفتح، فلم يفهم الدين انزواء إلى العبادة وإهمال العمل الدنيوي، إنما هو حركة دائمة تعمل للعالمية مثلما تعمل للأخرة، ومن هذا

القبيل كان يحارب نزعات الدروشة، ومظاهر التواكل والخمول التي كانت معيشة في زوايا بعض الطرق المنحرفة، فكان يردد قوله : "الأحذية أولا ثم الصلوات بعد ذلك" وظهر حبه للعمل والحركة الدائمة في قوله : "لا شك وأن السلطة البشرية تنعدم في أمة تبادلت مع حيواناتها الأخلاق.. فلا يكون لوفاء العهد، وهو الخلق العظيم مظهرا لا في كلابها، ولا يوجد الاعتماد على النفس في وحوشها الضارية، ولا التطوح والاغتراب في طلب القوات إلا في جوارحها وطيورها. إذا فليقتض على هذه الأمة قاضي النواميس الطبيعية أن تكون حقيرة ذليلة، محكومة مأسورة.." ²⁰

وفي افتتاحية العدد الثالث من جريدته ذو الفقار التي عنوانها "بالإسلام والمسلمين" يتساءل بلهجة ساخنة كيف يكون المسلم مسلما في بلاد مساجدها خالية من المصلين، بينما شوارعها مملوءة باللصوص والسفلة، بلاد انتشر فيها الربا والسلب والنهب والجفاء بين أهلها، وانعدم فيها الإحسان وكثر فيها تقليد الكافرين (الفرنسيين).. ²¹

وعارض عمر راسم التجنيد الإجباري ووقف ضد الفئة الاندماجية التي قبلت به بشرط كسب الحقوق السياسية دون مراعاة مسألة الدين والرابطة الإسلامية والعلاقة مع الخلافة الإسلامية. ولعل ذهابه إلى مصر عام 1912م، ²² كان تعبيرا منه عن سخطه على قانون التجنيد الإجباري الذي صدر في هذه الفترة، خاصة إذا عرفنا أن

السلطة الاستعمارية كانت قد منعت الهجرة إلى المشرق بالقوة على الجزائريين الساخطين، ومن جهة أخرى يعكس استجابته للأفكار الإصلاحية التي جاء بها محمد عبده فزار مصر للاطلاع على أحوال المسلمين هناك ومعاينة مدى نجاح حركته الإصلاحية.

وكذلك نجده يندّد بنزعات التفسخ والانحلال الأخلاقي لدى الشباب المتفرنس، وانتقد كل الفئات المنحرفة، مبينا ولاءها للاستعمار كاشفا حيلها، بقوله : "ما من بلاء نزل من السماء إلا من أولئك الذين شقوا عصى الأمة المحمدية، وما من شقاء طلع من الأرض الرمضاء، إلا من المتبرئين من الشريعة الحنيفة، وما من ألم حل ببلادنا إلا من أولئك الحشرات الذين ملأت بهم الأرض فانسابوا بين أهل الإيمان كأفاعي سجستان، عادوا بلادهم وخرّبوا ديارهم، وخانوا ملتهم باسم المدنية والإصلاح، إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون..²³"

وبين أن أهم وسيلة للإصلاح الوطني بالاعتماد على الذات، عن طريق تعليم الأجيال الصاعدة، ليس بهدف إحداث نهضة ثقافية فحسب، وإنما لهدف سياسي حدده عمر راسم في توعية الضمير الوطني وتفتح أعين الجزائريين على واقعه المرير، كما يريد من العلم أن يكون أداة اعتزاز وإباء توقظ أحاسيس الوطنية بين الجوانح فتتمرد على الظلم والظالمين. فيقول : "...أجل، يجب أن نتعلم لكي نشعر بأننا ضعفاء، يجب أن نتعلم لكي تأبى نفوسنا الضيم، ولكي نطلب العدل والمساواة بين الناس في الحقوق الطبيعية، وفي النهاية

لكي نموت أعزاء شرفاء، ولا نعيش أذلاء جبناء.. "ويضيف".. نعلم كيف نرفع أصواتنا في وجه الظلم، يجب أن نتعلم لكي ندافع عن الحق ليمت التمييز.. ليقبر التفضيل والتخصيص فكلنا بشر، لنا الأرض ملكا مشاعا ولنا الهواء والماء والسماء، ليسعق أولئك المخالفون فكفاهم تعذيبا للإنسانية، كفاهم تمزيقا لجسمها، كفاهم ما أنزلوه عليها من مجالدهم الجهنمية"²⁴.

ولابد حسبه أن يكون التعليم باللغة العربية في مدارس ينشئها الجزائريون أنفسهم وبإمكانياتهم الخاصة حتى لا تقيدوا الإدارة الاستعمارية مثل الكتاتيب التي أنشأها "شارل جونار" الحاكم الفرنسي العام في الجزائر. والتي كان يعارض وجودها لأنها أنشئت لتوجيه الثقافة في الجزائر بما يخدم المخطط الاستعماري، وحاول في نفس الوقت تنبيه القائمين عليها من الشيوخ الجهلة إلى حقيقة واقعهم بأنهم : "حمر وحشية"²⁵.

وفي هذا الإطار نجده ينتقد بشدة بعض الجزائريين الذين تنكروا للغتهم القومية واستكفوا عن أن تعليمها لأبنائهم مفضلين لغة المستعمر الدخيل متأثرين بالحملة الدعائية والشبهات التي حاول الاستعمار إلصاقها باللغة العربية. ودافع عن اللغة العربية قائلًا أنها لغة العلم والحضارة وقادرة على مساهمة العصور المختلفة، ويكفيها فخرا أنها هي التي "تمدن العالم بها، وبها سعدت الأمم وارتقت إبان العصور الإسلامية المزدهرة". ويعلن تحديه واعتزازه بالشخصية العربية

الإسلامية بقوله : "سحقاً علينا ألا نتكل على غيرنا، وألا نهمل أجدادنا، وتعاليم ديننا، وإلا فلنمت موتة جاهلية، ولا نرى في بلادنا، ولا بين أولادنا. نحن عرب نحن مسلمون، نموت عربا نموت مسلمين"²⁶.

ومن آثاره «تفسير القرآن الكريم» الذي طرح من خلاله مفهومه للإصلاح الإسلامي وأهميته في علاج الوضع الجزائري، وفي مخطوطه "تراجم علماء الجزائر"²⁷ تراجم مختصرة لعدد من الشخصيات الجزائرية التي عاصرها أو سبقتها مثل حمدان خوجة وشيوخه عبد القادر المجاوي وعبد الحليم بن سماية، وفي ذلك تلميح إلى أهميتها في تأسيس العمل الوطني الإصلاحي والوطني الذي يدعو إلى الحذو حذوه.

وقبل ذلك كان عمر متيقظا لوضع اليهود في الجزائر بعد أن منحهم قانون كريميو الجنسية الفرنسية سنة 1870م، وأدرك مع زميله عمر بن قدور المخططات الصهيونية وأطماعها في القدس وفلسطين ومخاطرها على العالم العربي وقد نبها إلى ذلك مبكراً²⁸. ولم يكتف عمر بأضعف الإيمان من الألم و التحسر، بل راح ينشر فصولا في جريدة المرشد ومرشد الأمة التونسية دعا من خلالها إلى مقاومة هذا الداء مبينا مخاطره على الجزائر والأمة الإسلامية²⁹. وهاجم الصهيونية والاستعمار، بل وانضم إلى الجمعيات المناهضة للصهيونية، وكان يرجع أسباب سقوط الخلافة الإسلامية إلى تسرب العناصر الصهيونية إلى أجهزة الحكم في الدولة العثمانية³⁰.

ورغم أن عمر راسم لم يكن مؤرخا أو كتب في التاريخ لإحياء الذاكرة الوطنية، لكنه كان قريبا من المهتمين بهذا الجانب ومعينا عليه، فهو الذي وضع رسوم الخرائط والصور لكتاب "تاريخ شمال إفريقيا أو قرطاجنة في أربعة عصور، ط. تونس 1927م من تأليف الشيخ أحمد توفيق المدني³¹. وظهر قربه من جمعية العلماء المسلمين خاصة من خلال اللوحة التي رسمها لغلاف "كتاب الجزائر" لنفس المؤلف (الشيخ المدني) والتي برز فيها الجانب الحضاري العربي الإسلامي، حيث ظهرت على اللوحة عبارات هامة مثل "حب الوطن من الإيمان" وعبرة "الإسلام ديننا، الجزائر وطننا، العربية لغتنا"³² وهو الشعار الذي ناضل من أجله ابن باديس وجمعية العلماء، وبذلك فاللوحة رسالة وطنية وبرنامج إصلاح.

وحاول عمر راسم إيجاد تيار جزائري في فن الزخرفة والمنمنمات يدافع عن الهوية الجزائرية، فأسس مدرسة للفن أسماها "مدرسة الفنون الزخرفية والمنمنمات الإسلامية" وكانت تحمل مشعل إحياء التراث الجزائري الإسلامي، والتصدي للأهداف الاستعمارية البغيضة الكامنة في حركة الاستشراق والفرنسة للمجتمع الجزائري³³.

والخلاصة من خلال تتبع سيرة هذا الرجل وأفكاره نجده مع من عاصره من مصلحين فقد كان يريد توعية الشعب الجزائري بحقيقته الحضارية، آملا أن يحدث فيه ذلك تفاعلا ويقظة بعد ما طال نومه وغفلته بسبب تسلط الاستعمار، وبعدما فقد الثقة بقيادات

المسلمين ولم يرى فيهم إلا الخونة والمقصرين في حق شعوبهم كان يقول : "لا أريد أن أكون مع أناس أعتقد أنهم أعداء الحق والإنسانية والوطن"³⁴. وكان يشعر أن الأمة والشباب المسلم بحاجة إلى من يهديهما سواء السبيل، ويبدو أنه تأثر بما رآه في المغرب الأقصى عندما زار الرباط، من شبيلة مباركة تجد في الإصلاح الإسلامي لكنها كثيرا ما تغلو وتتطع وتسرف..ولا ينقصها إلا إمام مصلح راشد، يرد جماحها ويهديها إلى سواء الصراط"³⁵. ولكن وبعد أن فقد الثقة في الناس وأصابه اليأس خاصة بعد محنته في السجن فكان يقول : "لا يوجد عندنا شعب إطلاقا، وإن ما تراه حولك ليس إلا سائمة ترعى في أرض، أو كما يقول بقر الله في زرع الله"³⁶ وبعد فقدته الثقة بالقيادة وكان يرى الأمور تزداد سوءا والوطن يزداد تخلفا والعدو يزداد شراسة، فأصيب بالسوداوية ولهذا التفت إلى العمل الفني محاولا الحفاظ على التراث العربي الإسلامي أمام موجات الفرنسية والتغريب. لعله بذلك ينقذ تراث الأمة للأجيال اللاحقة وكان يقول : "لا خلاص للشرق من سيطرة الغرب إلا بإيمان الشرق بشخصيته واعتماده بنفسه، واعتماده على قوته، يستمد كل ذلك من تاريخه الذهبي، وبيعته من جديد بمواكبة متطورة، أساسها العلم الصحيح، الذي لا ينبهر ببريق المدنية الخادع، فإنه ليس أضر بالأمم الناهضة من التقليد والجمود"³⁷.

عمر راسم وحركة الجامعة الإسلامية

رغم أن عمر راسم كان مزدوج اللغة، فقد كانت له غيرة على التراث العربي الإسلامي

وارتباط فكري بالجامعة الإسلامية وفي نفس الوقت على الفكر الغربي. ومن أهم العوامل في ذلك زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر سنة 1903هـ، وهي الزيارة التي تركت أثرا على الجزائريين. وكان هدفها المعلن هو الوقوف على أحوال المسلمين في منطقة المغرب العربي والاطلاع على آثار الإسلام هناك. وقد اجتمع محمد عبده بعدد من علماء الجزائر منهم "محمد بن خوجة" و"عبد الحليم بن سماية" وكانا من المعجبين بمجلة المنار التي قالوا عنها: "هي مدد الحياة لنا فإذا انقطع انقطعت الحياة عنا". وكان محمد عبده يعقد الجلسات في دار أحد التجار ضاحية الحامة اسمه "مصطفى الأكل" ويذكر سعد الله أن عمر راسم من الذين حضروا هذه المجالس. وتأثر بما كان يطرحه الشيخ محمد عبده من أفكار تجديدية في تعليم وغيره، أمام تخلف الزوايا و التصوف الكاذب³⁸.

وظهر تأثير الشيخ عبده على عمر راسم جليا في صحافته، فعندما أصدر جريدة ذو الفقار اعتبر الشيخ محمد عبده مديرا دينيا لها وجاء في عددها الأول: "ذو الفقار جريدة عبدوية إصلاحية، وإنها لا تخرج عن الطريقة التي خطها رجال الإصلاح المخلصين" كما ظهر على غلاف عددها الثالث صورة الشيخ عبده التي رسمها راسم بريشته المبدعة.

وكانت جريدة ذو الفقار تنشر أخبار عبده الدينية، وتبنت خططاً ضد الطرق الصوفية المنحرفة والخرافات وضد الوضع الديني الرسمي في الجزائر، وكذلك ضد أصحاب الرندنجوت (المعطف الطويل) يريد به المتفرنسين³⁹ ولهذا أوقفتها الإدارة الفرنسية عشية الحرب العالمية الأولى⁴⁰.

وكان عمر راسم من الذين أسهموا بالكتابة في جريدة الحاضرة التي أسسها "علي بن شوشة" وأصبحت لسان حال كتلة قوية من المثقفين والمدرسين من الزيتونة الصادقية وعملت على ربط تونس بالجامعة الإسلامية⁴¹. وكذلك كتب في مجلة العالم الإسلامي التي أصدرها "الشيخ عبد جاويش" خلال الحرب العالمية الأولى وكانت تدافع على المسلمين وتنتقد السياسة الفرنسية وحركة الآباء البيض في الجزائر⁴². وكان من الذين حضروا مؤتمر القاهرة سنة 1932م للدفاع عن الخلافة الإسلامية وإحيائها بعدما تم إلغاؤها⁴³.

الإصلاح الاشتراكي

بعد الإصلاح الاجتماعي من الجوانب التي لم يغفل عنها عمر راسم، إذ أولى هذا الجانب اهتماماً كبيراً، فنجد أنه يندد بنزعات الانتفاع والمصلحة الشخصية والأنانية لدى بعض الأغنياء الأشحاء، فنصب نفسه مدافعاً عن الفقراء ومحامياً عن قضاياهم، فلم تهمل جريدته ذو الفقار في أعدادها الأربع التي صدرت انتقاد الأخلاق الانتفاعية فجاء في افتتاحية عددها الأول: "ذو الفقار يبارز الأغنياء المقصرين الذين يريدون أن يجعلوا مخلوقات الله ونظامات الكون آلات يستجلبون بها منافع لهم"⁴⁴.

كان عمر راسم من أوائل المعجبين بالفكر الاشتراكي كفكر إصلاحي، وكان ذلك نابعا من إيمانه بسماحة الإسلام وعدالته، وهي تمثل عنده الاشتراكية الإسلامية كما سماها مصطفى السباعي، وقد كتب في ذو الفقار عام 1914م مقالة تحت عنوان "صيحة اجتماعية" يشرح فيها نظريته الاشتراكية المبنية على العدالة الاجتماعية لإنصاف المحرومين وتخليصهم من نير الظالمين، وهي نظرة لا يفهمها إلا من اطلع على أحوال الجزائريين المزرية آنذاك، وبالتالي فهي نظرة أقرب إلى الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي ولا علاقة لها بالجانب الإيديولوجي للفكر الاشتراكي. ولهذا كان يسميها مذهب الاشتراك الذي أنبعث من ألمانيا، والذي أنصف الفقراء والمحتاجين والعمال وحتى عقلاء الأمم الأحرار، لاسيما أولئك الذين كانوا يعملون على المساواة بين الناس، وهنا نجده يستفهم بقوله - صلى الله عليه وسلم - : " لا فضل لعجمي على عربي ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى"⁴⁵ ومعنى ذلك لم يكن يرى لهذا المفهوم الاشتراكي من العدالة الاجتماعية أي تعارض مع ما دعا إليه الإسلام من المساواة والعدالة، وإنما يرى في ذلك حلا لتقليص الفوارق الطبقية وحدا لجشع الأغنياء الجزائريين حتى يتحولوا إلى التكافل الاجتماعي والعمل الوطني ونهضة المجتمع الجزائري، ويفعل ذلك في إطار منهجه الفكري المتذمر من الاستعمار بكل ألوانه وضروبه، ومن أجل بعث الروح القومية لتحقيق الوحدة النضالية للتخلص من هذا العبء الاستعماري البغيض. والأغنياء هم

أكثر الشرائح الاجتماعية مقدرة على إحياء مشاريع محاربة الاستعمار اقتصاديا وثقافيا⁴⁶.

ففي مقال تحت عنوان (التعاون! التعاون!) يشرح ذلك بقوله :
"...آه لو كان للمسلمين الآن حزب اشتراكي! لكن من يعمل به ؟ وهل من أغنياء من ينقاد إلى تعاليمه ومبادئه ؟ أيها الأغنياء إن لم تعملوا الصالحات وتوهبوا، وترحموا وتعطفوا وتسعوا في نهضة أمتكم المسكينة فما عليكم إلا الخروج من الإسلام، والدخول في غيره من الأديان لأنكم عار عليه، وإن مبادئه والإنسانية يتبرآن منكم..."⁴⁷

محمد راسم والإصلاح

محمد راسم أكبر من أخيه عمر بعدة سنوات، وقد تخرج من مدرسة العائلة المحافظة وتشرب روحها الإسلامية والوطنية، ورغم أنه مرّ بمدرسة الفنون الجميلة الفرنسية، فإنه لم يتأثر بما فيها وبقي مع أخيه عمر وفين لتقاليد العائلة والبلاد، إذ لاحظ عليه الفرنسيون أنه أدخل حياة الشرق في فنه وجذب إليه أنظار علماء الرسم وقال عنه بيرك اسم "أمير فن المنمنمات"

وأنه كان يمزج في أعماله بين أصالة الفن الفارسي ونارية المزاج الجزائري.⁴⁸

تمكن بواسطة عبقريته وإمكانياته العلمية من إثراء التراث الفني من دون المساس بأصالته، وبذلك يكون محمد راسم قد اقتنع أن المقاومة يمكن كذلك خوضها على الجبهة الفنية. لهذا السبب

حاول جاهدا أن يحمل إنجازاته علامات الإبداع والعظمة والفخر كما كانت عليه حال الجزائر قبل الحقبة الاستعمارية وكما كان يريدها بعد استعادة استقلالها. كان يريد أن يوقظ كرامة الشعب الجزائري ويشير غيرته، جدارته وحنينه. وقد قادته بذلك قناعاته العميقة، النابعة من روح الحرية، إلى لقاء شعبه ووطنه في سبيل تصحيح تاريخهما الذي حرفه الاستعمار

خاتمة :

ومن خلال هذا العرض نخلص إلى أن عائلة راسم هذه ساهمت في الحركة الإصلاحية أو ما يسمى النهضة الجزائرية التي ظهرت في مطلع القرن العشرين، ومساهمتها كانت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في وقت كانت الجزائر تعيش منعاً للحريات حيث أريد لها الاندماج أو الذوبان في الثقافة الغربية، ولهذا على قدر ما سمحت به الظروف والإمكانيات عملت عائلة راسم على تعميق المفاهيم الحضارية الإسلامية، والمبادئ الوطنية الإصلاحية بمختلف الوسائل، إما بالتنشئة والتوجيه للأبناء كما فعل الوالد علي بن سعيد راسم، أو ما ساهم به عمر راسم من نشاط صحفي وإسهامات فنية لتكريس النمط الإسلامي وإنشاء مدرسة من أجل تحقيق التواصل بين الأجيال الجزائرية وتحقيق الاستمرارية الحضارية، وكذلك فعل محمد الذي اتخذ من فن المنمنمات سبيلا للمحافظة على الهوية الحضارية والوطنية للجزائر.

الهوامش :

- 1 - عمار طالبي : ابن باديس حياته وآثاره - الجزء الأول - ط. 1، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة، 1968، ص. 47 - 48.
- 2 - راجع، الشبكة الإسلامية www.islamweb.net
- 3 - وقد اشتهرت عائلة راسم بالفن والرسم والفنون الجميلة، كالخط والمنمنمات وكان سعيد راسم نفسه فنانا، ويذهب جورج مارسلي إلى أن الأسرة قد تكون جاءت من المشرق في وقت مبكر غير معروف واستقرت أولا في بجاية ثم انتقلت إلى العاصمة، وربما من العائلات الأندلسية التي استقرت ببجاية. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط. 2، 2005، ج. 8، ص. 429.
- 4 - حيث فتحت المدرسة الثعالبية في عهد الحاكم الفرنسي (جونار) سنة 1904م، رغم أن مرسوم إنشائها صدر منذ سنة 1850م. راجع : الشبكة الإسلامية، www.islamweb.net
- 5 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 283 - 284.
- 6 - عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من عصر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت لبنان، ط. 2، 1403هـ/ 1983 ص. 243.
- 7 - محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، مجلة الثقافة، العدد 30، ذو القعدة - ذو الحجة 1395هـ / ديسمبر - جانفي 1976م، ص. 12.
- 8 - أنظر، مجموعة المؤلفين : الموسوعة الصحفية العربية، تونس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1995، ج. 4، ص. 85.
- 9 - محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 14.
- 10 - عادل نويهض : المرجع السابق، ص. 243.

- 11 - عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945م) ط. 1، دار البعث بقسنطينة، الجزائر، 1401هـ/1981م، ص. 65.
- 12 - عمر راسم : جريدة ذو الفقار، العدد الأول 15/10/1913.
- 13 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 242 وص. 247.
- 14 - محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 16.
- 15 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 288.
- 16 - راجع محمد صالح الجابري : مجلة الحياة الثقافية، تونس، ص. 17 وص. 21، نقلا عن سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 285.
- 17 - راجع نصيحة الأخ ودعوة الإصلاح، في جريدة الحق الوهراني، 11/30/1912م، ص. 44؛ محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 17.
- 18 - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، 1900 - 1930، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، ط. 1983، ص. 155.
- 19 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 285.
- 20 - م ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 18.
- 21 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 289.
- 22 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 286.
- 23 - راجع نصيحة الأخ ودعوة الإصلاح، في جريدة الحق الوهراني، 11/30/1912م، ص. 44، م؛ ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 17.
- 24 - الإنسانية تتعذب، جريدة الحق الوهراني، عدد 26، 25/08/1912.
- 25 - محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، مجلة الثقافة، ص. 21.
- 26 - جريدة الحق الوهراني، عدد 41 بتاريخ 20/07/1912.
- 27 - عادل نويهض : المرجع نفسه، ص. 243.
- 28 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 247.
- 29 - محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 14.

- 30 - رغداء زيدان : الثائر على العصر وأهله عمر راسم، ص. 6.
- 31 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 6، ص. 420.
- 32 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، ص. 430.
- 33 - عدنان عظيمة : الفن الجزائري الحديث محاولة للإبداع في مجلة التشكيلي، الأربعاء 1 تشرين الأول 2003، مأخوذ عن موقع [http:// unnivers-art arabfdunart.com_art.htm](http://unnivers-art-arabfdunart.com_art.htm)
- 34 - أحمد توفيق المدني : حياة كفاح، ج. 2، ص. 56.
- 35 - محمد السعيد الزاهري : حديث مع الشيخ راسم، -مجلة الفتح - العدد 159، سنة 1929، نقلا عن كتاب : محمد السعيد الزاهري، لصالح خريفي، المؤسسة الوطنية للكتاب، سنة 1986، ص. 113.
- 36 - أحمد توفيق المدني : حياة كفاح، ج. 2، ص. 53.
- 37 - محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 31 - 32.
- 38 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 591.
- 39 - محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 16.
- 40 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 592.
- 41 - علال الفاسي : الحركة الاستقلالية، ط. 1، 1948، ص. 41 - 45.
- 42 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 600.
- 43 - نفسه، ص. 433.
- 44 - ذو الفقار، العدد الأول يوم 15/10/1913.
- 45 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 6، ص. 451 - 452.
- 46 - محمد ناصر : عمر راسم المصلح الثائر، ص. 19.
- 47 - راجع جريدة ذو الفقار، العدد 2، بتاريخ 26/10/1913.
- 48 - أوغسطين بيرك : الجزائر أرض الفن والتاريخ، 1937، ص. 262؛ سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 8، ص. 431.